مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

السخرة المملوكية في العمائر السلطانية

(٦٤٨ – ٩٢٣ هـ /١٢٥٠ – ١٥١٧ م)

د. هدى محمد حماد عبدالله

مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية بكلية الآداب

جامعة أسوان

مقدمة:

تعرض العامة في مصر خلال العصر المملوكي لصور مختلفة من أعمال الظلم والتعسف والجور، وتعرضت أموالهم وممتلكاتهم في كثير من الأحيان للمصادرات، وكانوا هم وحدهم يدفعون ثمن ارتفاع الأسعار، ومواجهة المجاعات والأوبئة والأمراض، والكوارث الطبيعية والأزمات الاقتصادية، وسخروا في الأعمال تسخيراً. فمعظم المنشآت القديمة الضخمة والفخمة التي نراها من مدارس ومساجد وجسور وغيرها بُنيت بتسخير العوام كما سنرى. فلم يجد بعض أمراء وسلاطين المماليك حرجاً في تسخير العامة في أعمالهم المعمارية بالقوة والإجبار. وقد ساهم العامة وبشكل كبير في تلك الأعمال المعمارية واستطاعوا بمجهوداتهم إنجاز سلسلة طويلة من المنشآت المعمارية سواء أكانت هذه المنشآت قد بنيت لخدمة الأمراء والسلاطين الشخصية أو للمصلحة العامة.

ومن صور المظالم التي لم تحظ بالدراسة من جانب الباحثين موضوع السخرة في مصر خلال العصر المملوكي فعلى الرغم من استفاضة الباحثين في الحديث عن صور المظالم المختلفة التي تعرض لها العوام خلال العصر المملوكي إلا أن موضوع السخرة في العمائر السلطانية لم ترد فيه إلا بعض الإشارات البسيطة، ولهذا جاء اهتمامي بدراسة السخرة في العمائر السلطانية في مصر خلال العصر المملوكي وسلط البحث الأضواء على هذا الجانب. وبما أن البحث يّعني بالسخرة المملوكية في العمائر السلطانية فقد قسمته إلى أربعة محاور يمكن عرضها على النحو التالي:

المحور الأول: ويتناول تعريف السخرة لغة واصطلاحاً، والمحور الثاني: يتطرق للحديث عن النشأة التاريخية للسخرة في مصر والظروف العامة وراء ذيوعها وانتشارها، والمحور الثالث: يتناول أشكال السخرة في مصر في العصر المملوكي، أما المحور الرابع: فيتحدث عن الموقف العام من السخرة في العصر المملوكي، وقد أنهيت البحث بعد المحاور بخاتمة ضمنتها أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة وأعقبتها بذكر المصادر والمراجع.

المحور الأول: السخرة لغة واصطلاحاً:

أ – السخرة في اللغة:

أفردت المعاجم اللغوية معانى مختلفة لمصطلح السخرة المشتق من الفعل سخر بمعنى قهر، وسخرته أي قهرته، والتسخير هو التذليل، والسخرة العمل بلا أجر ولا ثمن، ويقال: سخرته أي قهرته وذللته، وسخره: كلفه ما لا يريد وقهره [١].

ب – السخرة في الاصطلاح:

لم يبتعد مستشرق أوربي[٢] عما ذهب إليه اللغويون العرب في تعريفهم للسخرة فعرفها بأنها الإجبار والاضطرار. والسخرة هي أخذ الناس للعمل بدون أجر[٣]. وقد أضاف صاحب معجم تيمور[٤] ما اتسعت لتشمله دلالة كلمة السخرة وعلى ذلك جعلها مرادفاً لكلمتيْ (العونة) و (العملية) واعتبرهما معاً تسمية لعملية إخراج الناس للعمل قسراً بلا أجر لحفر الترع والخلجان وغير ذلك. ولم يخرج كاتب أوربي آخر [٥] في تعريفه للسخرة عن هذا المعنى، واتسع مفهوم السخرة عند مؤرخيْن معاصريْن هما إبراهيم طرخان وسعيد عبد الفتاح عاشور [٦] حيث بدت السخرة لديهما أمراً لم يكن أمام الفلاحين إلا القيام به قهراً مهما بلغ فقرهم، وما كانوا يؤدونه من مغارم مادية وعينية عرفت باسم الضيافة والهدايا التي تشتمل على بعض منتجات الريف من غلة ودجاج وخراف وبرسيم وكعك وغيره، هذا فضلاً عن بعض الخدمات التي يؤديها الفلاحون للمقطعين وتدخل ضمن الهدية

---

(١) الزمخشري: أساس البلاغة، ج ١، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨ م، ص ٤٤٣ ؛ الرازي: مختار الصحاح، تحقيق يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٩٩ م، ص ١٤٤ ؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ٧ ، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٣ م، ص ١٤٦ ؛ الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ١١، تحقيق عبد الكريم العزباوي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٩٧٢ م، ص ٥٢٣ – ٥٢٤.

(2) J.W.Red House:Alexicon English And Turkish , Printed for the Mission by A. H. Boyajian,1884, p 341.

(٣) عماد جغيم عويد العبودي: شعر الجوع في الأدب العربي (العصر المملوكي أنموذجاً) ، جامعة ميسان، كلية التربية، مجلة أبحاث البصرة (العلوم الإنسانية) ، المجلد ٣٨، العدد ١، ٢٠١٣ م، ص ٩.

(٤) أحمد تيمور: معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية، ج ٤، تحقيق حسين نصار، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١ م، ص ٩٥، ٤٣٥، ٤٥٣.

(٥) هنرى عيروط: الفلاحون، ترجمة محمد غلاب، الطبعة الثانية، (ب. ن)، ص ٥٥.

(٦) إبراهيم على طرخان: النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨ م، ص ٢٥٠ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٢ م، ص ٥٨.

والضيافة لم تكن في تقديرهما سوى سخرة إقطاعية ولم يكن هروب الفلاح لضيق يده يعفيه من ذلك أو يسقطه عنه بل كان على زوجته وأولاده الالتزام بالأداء عنه حتى وإن اضطروا لبيع كل ما يملكون نظير ذلك. ويعرف صاحب قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية [٧] السخرة بأنها : " تسخير الأهالي من غير أجر في المصالح العامة كحفر الترع وحراسة الجسور خصوصًا أيام الفيضان من طغيان ماء النيل، وتسخير الأهالي في أطيانهم، كأن يؤخذ الفلاح ومحراثه ومواشيه لحرث أرض الغني بلا مقابل " .

ولم يبتعد اللغويون كثيراً عما ذهب إليه المفسرون حول معنى كلمة سخر في القرآن الكريم في قوله تعالى: " لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا " [٨] أي من سنن الله الكونية اختلاف الناس في المعايش فجعل منهم أقوياء وضعفاء وأغنياء وفقراء وموالي وخدم، ليستسخر هذا هذا في خدمته إياه، فهو يسخره بالعمل، و يستعمله به، ويستخدم بعضهم بعضا في السخرة [٩]. وذهب " البغوي " [١٠] في تفسيره لهذه الآية قوله: " ليستخدم بعضهم بعضا فيسخر الأغنياء بأموالهم الأجراء الفقراء بالعمل، فيكون بعضهم لبعض سبب المعاش، هذا بماله، وهذا بأعماله " ، وجاء في تفسير القرطبي لهذه الآية " تسخير الأغنياء الفقراء فيكون به بعضهم سبباً لمعاش بعض " [١١] .

وخلاصة القول فإن مفهوم السخرة هو العمل القسري الإجباري بدون أجر، أو بعائد مادي زهيد لا يتماشى مع ما يقدمه الإنسان من خدمات وما يستحقه من حقوق وما يلبي احتياجاته الأساسية، فالأجر الرمزي مع الإجبار هو في حد ذاته سخرة مقنعة، بالإضافة إلى الابتزاز والمغارم المادية والعينية بلا مبرر إلا ما يمتلكه أصحاب النفوذ من سلطة وقوة، فهو استرقاق بشع للأحرار الذين من المفترض أن يكونوا أحرار ويعيشوا حياة إنسانية كريمة في بلادهم.

---

(٧) أحمد أمين: قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، ٢٠١٣ م، ص ٢٣٢.

(٨) الزخرف: ٣٢.

(٩) الطبري: تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آى القرآن، ج ٢١، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ص ٥٩٥ – ٥٩٦ ؛ الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج ٤، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦ م، ص ٢٤٨.

(١٠) تفسير البغوي معالم التنزيل، ج ٧، تحقيق محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية و سليمان محسن الحرش، دار طيبة، الرياض، ص ٢١٣.

(١١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ١٦، دار الفكر، القاهرة، ص ٧٨.

المحور الثاني: الظروف العامة وراء ظهور السخرة وذيوعها:

- **نشأة السخرة وبدايتها في مصر:**

لم يكن نظام السخرة في مصر نظاماً مستحدثاً فقد عرفته مصر منذ أقدم عصورها ؛ ففي العصر الفرعوني اعتبرت السخرة نوع من الضرائب، وبصفة مبدئية كان جميع المصريين مكلفين بأدائها. وفى واقع الأمر كان الفلاحون خاصة هم المكلفين بأداء السخرة. وقد استخدمت هذه الأيدي العاملة الضخمة في بناء الأهرامات والمعابد الجنائزية خلال الدولة القديمة. وقد بدت السخرة في أقسى صورها وأشدها تعنتاً خلال عصر الدولة القديمة بوجه خاص. أما في العصور اللاحقة فقد فقدت ضراوتها وقسوتها تماماً، وأصبح الإجبار والإلزام الوحيد بالنسبة للفلاح المصري هو العناية بأرضه وزراعتها والاهتمام الفائق بها [١٢]. كما عانت مصر من الاستغلال الأجنبي تحت حكم الدولة الرومانية وعاشت البلاد في تفكك اجتماعي وخراب اقتصادي وأصبحت مصر مجرد ضيعة تنتج القمح لصالح الإمبراطورية الرومانية وكان فلاحوها عبيد وأقنان هذه الضيعة والزراع المسخرين في حرثها وحصادها [١٣]. فقد فرضت السخرة مع بداية حكم الإمبراطورية الرومانية على الفلاحين الذين كان عليهم عدة أعباء يقومون بها عن طريق السخرة وهي ما تعرف بالخدمة الوضيعة فكان يفرض عليهم خمسة أيام من العمل قسراً في مشروعات الدولة مثل بناء السدود وشق الترع وتنظيف القنوات ومشروعات الري، غير أنه كانت هناك إمكانية للإعفاء منها مقابل دفع مبلغاً من المال [١٤].

وترد إشارات إلى وجود شيء من نظام السخرة هذا في العصريْن الفاطمي (٣٥٨ – ٥٦٧ هـ / ٩٦٨ – ١١٧١ م)، والأيوبي (٥٦٧ – ٦٤٨ هـ / ١١٧١ – ١٢٥٠ م) ففي عام ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م أراد ذخيرةُ الملك جعفر [١٥] في ولايته على القاهرة والحسبة

---

(١٢) جي راشيه: السخرة في مصر الفرعونية، ترجمة فاطمة عبد الله محمود، مقال منشور على موقع http://crown-egypt.com، تاريخ آخر زيارة ١١ / ٤ / ٢٠١٧ م.

[١٣] عطية القوصي: تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربي حتى الفتح العثماني، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٩٧ م، ص ١١ – ١٢.

[١٤] زبيدة محمد عطا: الحياة الاقتصادية في مصر البيزنطية، الأمين للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٤ م، ص ١٢، ٨١.

(١٥) جعفر بن علوان، ذخيرة الملك ولاه الآمر بأحكام الله ولاية القاهرة والحسبة سنة ٥١٢ / ١١١٨ م فاشتد عسفه وظلمه، وكان قد أبدع في تعذيب الجناة وأهل الفساد أنواعاً من العقوبات خرج فيها

إنشاء مسجد ما بين الباب الجديد إلى الجبل وغلب عليه اسم " مسجد لا بالله " ؛ لأنه كان يقبض على الناس من الطريق ويقيدهم ويجبرهم على العمل فيه بغير أجر فيقولون: " لا بالله "، ولم يعمل فيه منذ أنشأه إلا صانع مكره أو فاعل مقيد [١٦]. ومما شجع الوالي على اقتراف مثل هذا الفعل أن الخليفة آنذاك الآمر بأحكام الله [١٧](٤٩٥ – ٥٢٤ هـ / ١٠٠١ – ١٠٢٩ م) كان فاسقاً ظالماً ذا كبر وجبروت [١٨]. وهنا نرى أنه حتى في بعض الأعمال الخيرية التي من المفترض فيها الإخلاص وبذل الأموال تقرباً لله تعالى يُجبر المصريون على العمل بدون أجر وبطريقة مهينة مذلة فمن الأولى ترك هذا العمل وعدم تكليف الناس فوق طاقتهم ليقال هذا مسجد فلان، ويبدو أن صاحب هذا العمل كان لا يرجو منه المثوبة والأجر. وينتقد السبكي [١٩] ما يفعله رجال السلطة بقوله: " وأمَّا أنك ترتكب ما نهى اللَّه عنه وتترك ما أمرَ به، ثم تريد أن تعمر الجوامع بأموال الرعايا ؛ ليُقال: هذا جامع فلان،

عن الحد فابتلاه الله بالأمراض التي ما عهد الناس مثلها حتى مات فتجنب الناس تشييعه والصلاة عليه ؛ (المقريزي: المقفى الكبير، ج ٣، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩١ م، ص ٣٩).

(١٦) ابن مأمون: أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ص ٤٧ ؛ المقريزي: المقفى الكبير، ج ٣، ص ٣٩ ؛ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٤، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧ م، ص ٢٧٦.

(١٧) هو منصور، وكنيته أبو على، ولقبه الآمر بأحكام الله بن المستعلي بالله أبى القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبى تميم معدّ ابن الظاهر بالله علىّ بن الحاكم بأمر الله منصور بن العزيز بالله نزار بن المعزّ لدين الله معدّ بن المنصور إسماعيل بن القائم بأمر الله، الخليفة الفاطمي العاشر ، ولد سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ م، وولي الحكم وهو طفل صغير عنده خمس سنوات وكان مدبّر سلطانه الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش فلما كبر قتل الأفضل وأقام في الوزارة المأمون أبا عبد الله محمد بن مختار بن فاتك البطائحىّ فظلم وأساء السّيرة إلى أن قبض عليه الآمر سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م وصادره ثم قتله في سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م وصلبه وقتل معه خمسة من إخوته، وقد كان الآمر ظالماً جباراً متظاهراً بالمنكر واللهو، ساءت سيرته بالظلم والعسف والمصادرة وبقي في الملك تسعا وعشرين سنة وتسعة أشهر، قتل سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣١ م، (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٥، دار الكتب، مصر، ص ١٧٠ – ١٧٣). وقد ابتهج الناس بقتله لفسقه وسفكه للدماء وكثرة مصادرته واستحسانه الفواحش. وعاش خمسا وثلاثين سنة.

(١٨) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج ٥، ص ١٧٠.

(١٩) معيد النعم ومبيد النقم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦ م، ص ٢٣.

فلا، واللَّه لن يتقبله اللَّه تعالى أبدًا، وإنَّ اللَّه سبحانه طيّب لا يقبل إلَّا طيّبًا " . فعل ذخيرة الملك ذلك وهو المحتسب المطلوب منه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا أنه كان أول المخالفين لمقتضيات المهنة، وقد أَطلق على مسجده مسجد الذخيرة لكن تسمية العامة له " مسجد لا بالله " غلبت عليه، وقدم أحد الشعراء الذي لم يصلنا اسمه نقداً لاذعاً له وخلد أفعاله الشائنة وطرقه المعوجة لتشييد بيتاً من بيوت الله [٢٠] فقال بيتين من الشعر مُعلقاً على بناء هذا المسجد بالسخرة

بقوله:

بنى مسجداً لله من غير حله وكان بحمد الله غير موفق

كمطعمة الأيتام من كد فرجها لكِ الويل لا تزني ولا تتصدقي [٢١].

وفي عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م أتم أسد الدين قراقوش [٢٢] بناء القلعة وقد استخدم أسرى الحرب وعدداً كبير من الفلاحين الذين سخروا لهذا الغرض للحصول على أيدي عاملة دون أجر [٢٣].

---

(٢٠) أحمد السيد الصاوي: كشف المستور من قبائح ولاة الأمور، مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر، الجيزة، الطبعة الأولى، ١٩٩٤ م، ص ٢٦.

(٢١)ابن مأمون: أخبار مصر، ص ٤٧ ؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٤، ص ٢٧٦.

(٢٢) أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي، الملقب بهاء الدين، وقراقوش لفظ تركي معناه بالعربية العقاب، وهو طائر معروف، كان خادم صلاح الدين، وقيل خادم أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين فأعتقه، ولما استقل صلاح الدين بمصر جعل له زمام القصر، ثم ناب عنه مدة بالديار المصرية، وفوض أمورها إليه واعتمد عليه في تدبير أحوالها، وكان رجلا مسعوداً وصاحب همة عالية، وهو الذي بنى السور المحيط بالقاهرة ومصر وما بينهما وبنى قلعة الجبل، وبنى القناطر التي بالجيزة على طريق الأهرام، وهي آثار دالة على علو الهمة، وعمَّر بالمقس رباطا، وعلى باب الفتوح بظاهر القاهرة خان سبيل وله وقف كثير لا يعرف مصرفه، وكان حسن المقاصد جميل النية، ولما أخذ صلاح الدين مدينة عكا من الفرنج سلمها إليه، ثم لما عادوا واستولوا عليها حصل أسيرا في أيديهم، ويقال إنه افتك نفسه بعشرة آلاف =دينار، وهناك افتراءات كثيرة عنه يبعد وقوع مثلها منه والظاهر أنها موضوعة ؛ فإن صلاح الدين كان معتمدا عليه في تدبير أحوال البلاد، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوضها إليه، توفي بالقاهرة سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م ؛ (ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٤، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧١ م، ص ٩١ – ٩٢).

المحور الثالث: أشكال السخرة في مصر في العصر المملوكي:

إن استقراءً واسعاً وعميقاً لمعطيات المصادر التاريخية خلال فترة البحث يوضح صور مختلفة للسخرة والاستغلال القسري لعامة الناس في العصر المملوكي، كما يوضح الضرر اللاحق بالواقعين تحت طائلتها في الريف والحضر على السواء، غير أن تباين صورها لا يعنى اختلافاً جوهرياً في طبيعة السخرة ومواقف فارضيها والمتضررين منها حيث يربط الجميع مفهوم الإجبار والاستغلال الكامن وراء ممارستها، وقد انقسمت السخرة إلى ما يلى:

أ- السخرة المؤقتة:

ونعنى بها فرض السخرة بشكل سافر ومؤقت لمصلحة عامة أو خاصة ولظروف طارئة. وقد فرضت أعمال التسخير هذه في المصالح العامة التي تخدم المواطنين كالمدارس، والمساجد، والجسور، والبيمارستانات (المستشفيات)، فضلاً عن إقامة المشاريع الخاصة بالسلطان، ونحو ذلك.

وكان يتم تجميع العمال الذين يقع على عاتقهم مهمة إنجاز هذه المشروعات من القرى والشوارع والأسواق لتسخيرهم في هذه الأعمال، وكانوا يتعرضون لكل صنوف الظلم والامتهان والإجاعة والإرهاق، فضلاً عن إجبارهم على العمل فوق طاقتهم [٢٤] ؛ الأمر الذي جعل أحد الكتاب المعاصرين لحقبة الدراسة يقدم بعض النصائح لشاد العمائر [٢٥] يدعوه

---

(٢٣) ابن جبير: رحلة ابن جبير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ص ٢٥ ؛ أحمد عبد الرازق عبد العزيز محمد: الفقراء في القاهرة في القرنين السادس والسابع الهجريين، رسالة ماجستير غير= =منشورة بكلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة الزقازيق، ٢٠١١ م، ص ٢٩ ؛ أولج فولكف: القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة، ترجمة أحمد صليحة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦ م، ص ٨٣.

(٢٤) قاسم عبده قاسم: النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٨ م، ص ٣٤.

(٢٥) شاد أو مشد: المفتش فيقال شاد العمائر أي الذي يفتش على العمائر السلطانية ويكون صاحب هذه الوظيفة مسئولاً عن إحداث أو تجديد ما يختار السلطان من القصور والمنازل والأسوار والإشراف عليها وإصلاح ما تهدم منها ؛ (القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٢٣ ؛ حسان حلاق و عباس صباغ: المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩ م، ص ١٢٣ ؛ محمود رزق سليم: عصر سلاطين

فيها إلى التلطف والرفق بالعمال وأنكر ما يقوم به البعض من تسخير البنائين وإجاعتهم وإعطائهم أجرة زهيدة دون حقهم وتكليفهم بالأعمال فوق طاقتهم وأعتبر ذلك من أقبح الحرمات، وأشنع الجراءات على الله في خلقه خاصة إذا استخدموهم في بناء المساجد والمدارس التي من المفترض أنها قُربةً لله تعالى ويتعجب على ذلك بقوله: " فليت شعري بأي قُربة يتقربون " [٢٦]. وكانت الطريقة الشائعة في تشغيل هؤلاء العمال هي السخرة [٢٧]. ولعل أبرز الأمثلة على ذلك:

أنه في سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م أمر السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي (٦٧٨ – ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ – ١٢٩٠ م) ببناء البيمارستان الكبير المنصوري في القاهرة، فجمع العمال والصناع للعمل به بالإضافة إلى ثلاثمائة أسير. وقد عاب الناس البيمارستان لكثرة العسف في عمله [٢٨]. وفي سنة ٧١٣ هـ / ١٣١٣ م اعتقل السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩ – ٧٤١ هـ / ١٣٠٩ – ١٣٤٠ م) عدداً كبيراً من عربان الصعيد وأرسلهم مقيدين في المراكب إلى القاهرة وأجبرهم على العمل بالسخرة في حفر الجسور [٢٩]. وفي كثير من الأحيان كان العامة يقعون ضحية لأعمال السخرة فكانوا يتعرضون لحوادث أثناء عملهم كثيراً ما كانت تودي بحياة بعضهم بسبب خطورة العمل المكلفين به دون أن يكون لهم أي نوع من التأمين على حياتهم أو التعويض عما أصابهم من جراء حوادث العمل[٣٠]. بالإضافة إلى إجبارهم وأخذهم بالقوة وتوثيقهم ضماناً لعدم هروبهم من السخرة ففي سنة ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م تعرض جسر من الجسور

المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، ج ١، المطبعة النموذجية، الحلمية الجديدة، الطبعة الثانية، ١٩٦٢ م، ص ٨٧ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٦ م، ص ٤٤٨ – ٤٤٩).

(٢٦) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص ١٠٠.

(٢٧) قاسم عبده قاسم: النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص ٣٤.

(٢٨) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٤، ص ٢٧٠.

(٢٩) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢ ، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧ م، ص ٤٨٩.

(٣٠) أحمد ماجد عبد الله الجبوري: أحوال العامة في مصر في عصر المماليك البرجية، رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة آل البيت، ٢٠١٥ م، ص ١٦١.

بالجيزة للانهيار فنقص ماء النيل في تلك المنطقة، وحيال ذلك قامت السلطة المملوكية بإلزام مجموعة من الناس لسده فغرق منهم نحو ثلاثين رجلاً في ساعة واحدة انطبق عليهم الجسر، ثم جُمع من مصر رجال كثيرون، وكُتفوا وأُنزلوا في مركب وعدتهم سبعون رجلاً، فانقلبت بهم المركب فغرقوا بأجمعهم (٣١).

والجدير بالذكر أنه قد تم استخدام المساجين في أعمال السخرة خلال العصر المملوكي، حيث كان يتم إخراجهم مقيدين للعمل بالعمائر السلطانية، وعمائر الأمراء، وحفر القنوات، وتنظيف الطرقات (٣٢) **ويجبرون على العمل الإلزامي** (٣٣) **مثلما حدث سنة ٧١٧ هـ / ١٣١٧ م عند بناء قصر بكتمر الساقي** (٣٤) **الذي أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون للأمير بكتمر الساقي فكان عماله من المساجين المقيدين وأقاموا في عمارته مدة عشرة أشهر. ولولا هذه العمالة المجانية لكلفت عمارته الكثير من الأموال. ويعلق المقريزي على ذلك بقوله: " والفعلة** (٣٥) **في العمارة هم أهل السجون المقيدون من المحابيس، وقدّر لو لم يكن في هذه العمارة جاه ولا سخرة لكان مصروفها في كل يوم مبلغ ثلاثة آلاف درهم**

---

(٣١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٥١٨.

(٣٢) هالة نواف يوسف الرفاعي: السجون في مصر في العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الدراسات العليا، قسم التاريخ، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٨ م، ص ١٨٨.

(٣٣) إيرا لابدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ترجمة على ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٧ م، ص ١١٣.

(٣٤) بكتمر الساقي: الأمير سيف الدين المظفري كان من مماليك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير (٧٠٨ – ٧٠٩ هـ / ١٣٠٨ – ١٣٠٩ م) فلما استقر الناصر محمد بن قلاوون في السلطنة (٧٠٩ – ٧٤١ هـ / ١٣٠٩ – ١٣٤٠ م) دخل في مماليكه وعظم قدر بكتمر جداً وكان الناصر لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً، كان بكتمر جيد الطباع حسن الأخلاق لين الجانب كثير الأموال جداً، كان يتلطف بالناس ويقضي حوائجهم وكان يحجز على الناصر في كثير من المظالم وبلغ من منزلته أن الناصر كان إذا أعطى أحداً وظيفة وقبّل الأرض يقول له: " اذهب إلى الأمير وبس يده "، مات سنة ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م بينما يذكر ابن حجر تاريخ وفاته سنة ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ م ؛ (المقريزي: المقفى الكبير، ج ٢، ج ٢، ص ٤٦٨ – ٤٧١ ؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، الطبعة الثانية، ١٩٧٢ م، ص ٢١ – ٢٣).

(٣٥) الفعلة صفة غالبة على من يعملون بالطين والحفر ؛ (ابن منظور: لسان العرب، ج ١١، ص ٢٠٢).

فضة " [٣٦]. ويعتبر المؤرخون عصر حكم الناصر محمد من أزهى عصور الفن والمعمار في تاريخ مصر الإسلامية عامة فقد كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون محباً للعمران ويشهد على ذلك مقدار ما خلفه هذا السلطان من مبانٍ وقصور وعمائر ومساجد ومدارس [٣٧]. فقد عمَّر الكثير من العمائر منها جامع قلعة الجبل، والقصر الأبلق بالقلعة، ومعظم الأماكن التي بالقلعة، وعمَّر المجرى الذي ينقل الماء عليه من بحر النيل إلى القلعة على السور، وعمَّر الميدان تحت القلعة ومناظر الميدان على النيل، وعمَّر قناطر السباع على الخليج ومناظر سرياقوس [٣٨] والخانقاه [٣٩] بسرياقوس، وحفر الخليج الناصريّ بظاهر القاهرة، وعمَّر الجامع الجديد على شاطيء النيل بظاهر مصر، وجدّد جامع الفيلة الذي بالرصد، والمدرسة الناصرية بين القصرين من القاهرة، وحفر عدّة من الخلجان والترع، وأقام الجسور بالبلاد ، " وبلغ مصروف العمارة في كل يوم من أيامه سبعة آلاف درهم فضة، عنها ثلاثمائة وخمسون دينارا، سوى من يسخره من المقيدين وغيرهم في عمل ما يعمره " [٤٠].

كما تم تسخير الأسرى في الأعمال المعمارية مثلما حدث سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩ م عندما قام الأمير قوصون [٤١] باستخدام الأسرى في بناء جامعه الشهير بجامع قوصون [٤٢].

---

(٣٦) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٣، ص ١٢٥.

(٣٧) عطية القوصي: موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية، عصر سلاطين المماليك، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٧ م، ص ٢٥.

(٣٨) سرياقوس: بلدة في نواحي القاهرة بمصر ؛ (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥ م، ص ٢١٨).

(٣٩) خانقاه: كلمة فارسية وتعني مكان للتعبد والتزهد والابتعاد عن الناس، وبمعنى بيت أيضًا، دخلت هذه الكلمة العربية منذ انتشار التصوف فهي كالدير في النصرانية ؛ (محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٠ م، ص ٦٦).

(٤٠) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٤، ص ١٠٥.

(٤١) الأمير قوصون: هو قوصون الساقي الناصري اشتراه السلطان الناصر(٧٠٩ – ٧٤١ هـ / ١٣٠٩ – ١٣٤٠ م) وعظمت منزلته عنده وزوجه من ابنته سنة ٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م ولما توفي الناصر تعصب للمنصور أبي بكر حتى سلطنه (٧٤١ – ٧٤٢ هـ / ١٣٤٠ – ١٣٤١ م) وقام هو بتدبير المملكة واستبد بتدبير السلطنة على طريق النيابة للمنصور ثم وقعت الوحشة بينهما فدس إليه من قتله واستمر قوصون يجلس في مجلس نائب السلطنة في عهد السلطان الأشرف

ومن الأمثلة على تسخير الناس في أعمال السلطان ومشاريعه الخاصة ما حدث سنة ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧ م عندما جلب السلطان الناصر محمد بن قلاوون من الصعيد ألفي رأس من الضأن، وجلب من الوجه البحري مثلها وشرع في بناء حوش لها وللأبقار التي عنده فوقع اختياره على موقع في قلعة الجبل مساحته أربعة أفدنة [٤٣]، وأمر أقبغا عبد الواحد [٤٤]بتسخير العامة فوكل أقبغا أمرهم لأمير يدعى عنبر السحرتي [٤٥] وكان ظالماً غشوماً بهم قام بتكليفهم بسرعة إنجاز أعمالهم من غير أن يجد لهم رخصة أو وقت للاستراحة. وكان هذا امتهاناً لأدميتهم ولأبسط حقوقهم الإنسانية، أضف على ذلك صعوبة الجو وقتذاك حيث كان الوقت صيفاً حاراً فهلك الكثير منهم في العمل لعجزهم عما كلفوا به. ورغم ذلك فإن الولاة لم تأخذهم بهم رأفة ولا رحمة وأخذوا يُسخرون من يظفرون بهم من العامة ويسوقونهم إلى العمل، وكان أحدهم إذا عجز وألقى بنفسه إلى الأرض رمى أصحابه عليه التراب فمات لوقته هذا، وكان هذا الأمر يتم على مسمع ومرأى من السلطان الذي

علاء الدين كجك بن الناصر(٧٤٢ – ٧٤٣ هـ / ١٣٤١ – ١٣٤٢ م) وقد قتل قوصون سنة ٧٤٢ هـ / ١٣٤٢ م لاستبداده بالأمور ؛ (ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج ٤، ص ٣٠٠ – ٣٠١).

(٤٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٤، ص ١٠٨.

(٤٣) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٣، ص ٢٣٢ – ٢٣٣ ؛.

(٤٤) أقبغا الناصري المعروف بأقبغا عبد الواحد، الأمير علاء الدين الأستادار، قدم به تاجر يدعى عبد الواحد بن بدال فاشتراه السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩ – ٧٤١ هـ / ١٣٠٩ – ١٣٤٠ م) وجعل اسم تاجره لقباً له وحظي عنده وعمل في الجمدارية ثم تنقل منها إلى الإستادارية وولي مع ذلك شاد العمائر ومقدم المماليك وغير ذلك، وكان السلطان الناصر متزوجاً من أخته طغاي ، وكان جباراً كثير الظلم ثم صودر في عهد السلطان المنصور سيف الدين أبو بكر (٧٤١ – ٧٤٢ هـ / ١٣٤٠ – ١٣٤١ م)، ثم ولي نيابة حمص في عهد السلطان الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر (٧٤٢ – ٧٤٣ هـ / ١٣٤١ – ١٣٤٢ م) ثم إمرة دمشق ثم طلب إلى مصر في أول عهد الملك الصالح عماد الدين إسماعيل (٧٤٣ – ٧٤٦ هـ / ١٣٤٢ – ١٣٤٥ م) فكان آخر العهد به وذلك سنة ٧٤٤ هـ / ١٣٤٣ م ؛ (المقريزي: المقفى الكبير، ج ٢، ص ٢٥٩ – ٢٦١ ؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج ١، ص ٤٦٥).

(٤٥) عنبر السحرتي الناصري ترقى في الخدم حتى أَمر طبلخاناة واستقر مقدم المماليك ثمَّ صرف فِي سنة ٧٣٥ هـ / ١٣٣٤ م ثم أعيد إليها سنة ٧٤٧ هـ / ١٣٤٦ م صودر ونفي إلى القدس سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م ومات في الطاعون بالقدس ؛ (ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج ٤، ص ٢٣٣ – ٢٣٤).

كان يحضر كل يوم ليرى العمل [٤٦]. وما حدث في نفس العام أيضاً من كثرة تسخير الناس للعمل في عمائر السلطان بالقلعة والقبض عليهم من بين القصرين وهم نيام، ومن أبواب الجوامع عند خروجهم من صلاة الصبح، فأبتلى الناس من ذلك ببلاء عظيم [٤٧]. وفي هذا عدم مبالاة بالناس وبأوقات راحتهم وكأنهم عبيد سخروا لخدمة مصالح السلطان وفقط، يتم القبض عليهم كالمجرمين، ومجبورين على العمل رغم أنوفهم.

وعند حفر الخليج الكبير المعروف بخليج الخور سنة ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧ م أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون والي القاهرة علاء الدين على بن حسن المرواني [٤٨] (٧٣٦ هـ – ٧٤٠ هـ / ١٣٣٥ – ١٣٣٩ م) بتسخير العامة للعمل فقُبض على عدد كبير منهم من المساجد والشوارع والأسواق. ونظراً لما كان يعانيه العامة من إرهاق ومذلة كان الكثير منهم يتسترون في منازلهم خوفاً من السخرة [٤٩]. كذلك سُخر الناس عند بناء المدرسة الأقبغاوية [٥٠] سنة ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧ م ويُلي الناس في بنائها ببلايا كثيرة ؛ منها أن أقبغا قرر على الصنّاع أن يعملوا بهذه المدرسة يوماً في الأسبوع بغير أجرة، فكانوا يتناوبون في العمل سخرة، ومنها أنه حمل لها الأصناف من الناس ومن العمائر السلطانية فكانت ما بين غصب وسرقة. وقد أوكل أقبغا أمر الإشراف على أعمال السخرة بمدرسته لمملوكه الذي لم يختلف كثيراً عن مولاه في ظلمه وعسفه وجبروته فلقي العمال منه مشقات لا توصف، ومع ذلك لم يكف ظلم مملوكه وتعسفه مع العمال بل كان " أقبغا " يقوم بنفسه بمباشرة العمل وضرب الصناع ضرباً مؤلماً [٥١]، ولعل أقبغا أراد أن لا يدخل مالاً

---

(٤٦) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٣، ص ٢٣٢ – ٢٣٣ ؛ سحر بنت على محمد دعدع، ولاة القاهرة الكبرى خلال العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ٢٠٠٦ م، ص ٢٢٠.

(٤٧) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٣، ص ٢٤٢.

(٤٨) هو الأمير علاء الدين على بن حسن المرواني والي القاهرة، كان ظالماً غشوماً سفاكاً للدماء، اقترح في ولايته عقوبات مهولة منها أنه كان ينعل الرجل في رجليه بالحديد كما تنعل الخيل، وقتل خلقاً كثيراً، توفي بعد ما قاسى أمراضا شنيعة مدّة سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٤٠ م ؛ (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٣٢٣).

(٤٩) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٩، ص ١٢٤، ١٢٧.

(٥٠) تسمى بالمدرسة الأقبغاوية نسبة إلى الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد أستادار الملك الناصر محمد بن قلاوون، وهي بجوار الجامع الأزهر، (المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٤، ص ٢٣٢).

(٥١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٣ ،ص ٢٤٨ – ٢٤٩ ؛ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٤، ص ٢٣٢ – ٢٣٣.

حلالاً في بناء مدرسته فكل شيء فيها جاء عنوة وغصباً [٥٢]وهو ما حدى بالمقريزي أن يصفها بأنها: " مدرسة مظلمة ليس عليها من بهجة المساجد ولا أنس بيوت العبادات شيء البتة... " [٥٣]، ويعلل ذلك بسبب الظلم والعسف الذي بنيت به.

وفي سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ م قامت الدولة بإصلاح قناطر شبين، وكان عدد العمال الذين قاموا بالعمل في إصلاحها أربعة آلاف رجل منهم من عمل بالسخرة ومنهم من تقاضى أجراً نظير عمله حسب حاجة الدولة له [٥٤]. ويبدو أن بعض عمال السخرة كانوا يعملون لقاء قوتهم اليومي [٥٥] ويتقاضون أجوراً زهيدة فقد قام الأمير منجك اليوسفي [٥٦] سنة (٧٤٩ هـ / ١٣٤٨) ببناء جسر فيما بين الجيزة والروضة، وتم جلب العمال والصناع، ومن أراد العمل وإعطائه أجرة زهيدة عبارة عن درهم ونصف وثلاثة أرغفة، فاجتمع إليه أناس كثيرون، وجعل لهم شيئا يستظلون به من حرّ الشمس، وأحسن إليهم [٥٧]. وفي سنة ٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م عند بناء مدرسة الأمير جمال الدين [٥٨] الأستادار [٥٩]عمل الصناع فيها بأبخس أجرة مع العسف الشديد [٦٠]. وعندما أراد السلطان المؤيد

---

(٥٢) أحمد السيد الصاوي: كشف المستور من قبائح ولاة الأمور، ص ٤٨.

(٥٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٤، ص ٢٣٢ – ٢٣٣.

(٥٤) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٣، ص ٢٦٤.

(٥٥) أحمد ماجد عبد الله الجبوري: أحوال العامة في مصر في عصر المماليك البرجية، ص ١٥٩ ؛ قاسم عبده قاسم: النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص ٣٥.

(٥٦) منجك اليوسفي: تنقل في خدمة السلطان الناصر ثم عين حاجباً بدمشق سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م ثم أعيد وعين وزيراً واستادار بعد حوالي ثلاثة أشهر فباشر الأمور وتمكن من الدولة، ثم صرف عن الوزارة وأعيد بعد أربعين يوماً ثم قبض عليه وسجن بالإسكندرية ثم أفرج عنه وأعيدت له أملاكه واستقر أمير ألف، ثم قبض عليه مرة أخرى فسجن بالإسكندرية سنة ٧٥٢ هـ / ١٣٥١ م، ثم أفرج عنه وسار إلى صفد سنة ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م ثم استقر على نيابة طرابلس ثم ولي حلب سنة ٧٥٩ / ١٣٥٧ م ومات سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م ؛ (ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج ٦، ص ١٢٣ – ١٢٥).

(٥٧) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٣، ص ٢٩٧.

(٥٨) جمال الدين الأستادار الشرف بن الشهاب محمد بن موسى بن محمد الحلبيّ، توفي سنة ٨١٢ هـ/١٤٠٩م ؛ (ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل في ذيل الدول، ج ٣، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢ م، ص ١٨١).

(٥٩) الأستادار: يوكل إليه النظر في بيوت السلطان جميعها، والإشراف على مطابخه ومشاربه وحاشيته وخدمه، ويدبر له ما يحتاج إليه، (حسان حلاق و عباس صباغ: المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية، ص ١٨ ؛ محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، ج ١، ص ٨٧).

شيخ (٨١٥ – ٨٢٤ هـ / ١٤١٢ – ١٤٢١ م) بناء سد بين الجامع الجديد الناصري وبين الروضة سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م [٦١] نادى المنادي في الناس للخروج للعمل في الحفير سخرةً، فخرجوا وخلت الأسواق والطرق من روادها، ولم يخلُ النداء على الناس من التهديد والوعيد لكل من تسول له نفسه الامتناع عن الخروج أو حتى مجرد التأخير بل وصل الأمر إلى التهديد بالشنق لكل من يفتح دكاناً فتوقفت أحوال الناس [٦٢]. وفي سنة ٨٢٢ هـ / ١٤١٩ م كثر تسخير الناس للعمل في حوش العرب تحت القلعة، وتتبع أعوان الوالي الناس في الطرقات حتى قل سعي الناس في الطرقات ليلاً [٦٣] ثم لم يلبث أن أمر السلطان المؤيد شيخ أن لا يسخر أحداً من العامة للعمل في حوش العرب فأعفوا وخلص كثير من العامة [٦٤].

وكان العمال في مثل تلك المشاريع من العامة وأهل المدن والمساجين، ولم تكن لهم أي رعاية أو حقوق إنسانية فكانوا يعاملون معاملة سيئة جداً وكانوا يجرون إلى العمل جراً وكان الكثير منهم يلقى حتفه لتحمله فوق طاقته وعدم مراعاة حالته الصحية أو قدرته على العمل [٦٥]. ولم يكن له أي نوع من الضمان الاجتماعي بل كان الأمر لا يخرج عن إطار الصدقة والإحسان من قبل السلاطين والأمراء (٦٦). ففي سنة ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م سقط نجار أثناء عمله في القلعة من الأدوار العليا فمات وكان فقيراً له أولاد فذهب أولاده إلى السلطان الأشرف سيف الدين قايتباي (٨٧٢ – ٩٠١ هـ / ١٤٦٧ – ١٤٩٥ م) يلتمسون شيئاً من الصدقة فأمر لهم بمائة دينار، وأمر للميت بثوب بعلبكي وثلاثة أشرفية

---

(٦٠) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٤، ص ٢٦٢ ؛ أحمد السيد الصاوي: كشف المستور من قبائح ولاة الأمور، ص ٥٧.

(٦١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ١٤، ص ٢٩ ؛ سحر بنت على محمد دعدع، ولاة القاهرة الكبرى خلال العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ٢٠٠٦ م، ص ٢٢٠ – ٢٢١.

(٦٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ١٤، ص ٢٩.

(٦٣) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٦، ص ٥٠١ ؛ سحر بنت على محمد دعدع، ولاة القاهرة الكبرى خلال العصر المملوكي، ص ٢٢١.

(٦٤) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٦، ص ٥٠١.

(٦٥) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٥١٨، ج ٣، ص ٢٣٢ – ٢٣٣ ؛ طارق محمد شريتح الكرد: حقوق الإنسان في دولة المماليك، رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الآداب، قسم التاريخ والآثار، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠١٥، ص ٦٢.

(٦٦) أحمد ماجد عبد الله الجبوري:أحوال العامة في مصر في عصر المماليك البرجية، ص١٦١.

يجهزونه بها (٦٧) . ومن الأمراء من عُرف عنه الظلم والعسف وإنقاص أجرة العمال وإعطائهم دون حقهم ومنهم الأمير خشقدم شاد الشون [٦٨]وهو من مماليك السلطان قانصوه الغوري (٩٠٦ – ٩٢٢ هـ / ١٥٠٠ – ١٥١٦) فقد كان إذا استعمل عاملاً قطع من أجرته وأخرجه غير راضٍ عنه ((٦٩)).

ومن المؤكد أن هذا الأمر لا ينطبق على جميع الأمراء والسلاطين؛ فالملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري (٦٥٨ – ٦٧٦ هـ / ١٢٥٩ – ١٢٧٧ م) مثلاً عندما أمر ببناء مدرسته الظاهرية سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م، طلب أن " لا يُستعمل فيها أحد بغير أُجرة، ولا يُنقص من أُجرته شيئاً "، ولم يكتف بذلك بل زاد على ذلك أنه عند الانتهاء من بنائها سنة ٦٦٢ هـ /١٢٦٣ م جمع الجميع ومدت لهم الأطعمة ثم وُزعت الخلع [٧٠]. وعندما أراد السلطان حسام الدين لاجين المنصوري (٦٩٦ – ٦٩٨ هـ / ١٢٩٦ – ١٢٩٨ م) تجديد الجامع الطولوني وكل أمره للأمير علم الدين سنجر الدواداري [٧١] سنة ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م " وأكد عليه في أن لا يسخّر فيه فاعلا ولا صانعا، وأن لا يقيم مستحثا للصناع، ولا يشتري لعمارته شيئاً مما يحتاج إليه من سائر الأصناف إلّا بالقيمة التامة، وأن يكون ما ينفق على ذلك من ماله " [٧٢].

وعندما أنشأ الأمير شيخ الدين شيخو الناصري [٧٣] جامعه المشهور باسمه جامع شيخو سنة ٧٥٦ هـ / ١٣٥٥ م " رفق بالناس في العمل فيه وأعطاهم أجورهم " [٧٤]

---

(٦٧) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤ م، ج ٣، ص ٧٠.

(٦٨) شاد الشون هو قائد الأسطول و المسؤول عنه ؛ (محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ٩٥).

(٦٩) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٤٥١.

(٧٠) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٤، ص ٢٢٥ – ٢٢٦.

(٧١) سنجر بن عبد الله بن البرلي التركي الصالحي النجمي، علم الدين أبو موسى الدواداري، من أمراء الألوف، كان دينا فاضلا عالما بالفقه والحديث، توفي سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م ؛ (الذهبي: معجم الشيوخ الكبير، ج ١، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، مكتب الصديق، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م، ص ٢٧٣ – ٢٧٤).

[٧٢] المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٤، ص ٤٣.

(٧٣) شيخو الناصري كان مقدماً أيام الملك المظفر زين الدين حاجي (٧٤٧ – ٧٤٨ / ١٣٤٦ – ١٣٤٧ م) وعظم شأنه في عهد الملك الناصر ناصر الدين أبو المعالي (٧٤٨ – ٧٥٢ هـ / ١٣٤٧ – ١٣٥١ م) وصار من مستشاريه، وفي سنة ٧٥١ هـ / ١٣٥٠ م كتب له بنيابة طرابلس وهو في الصيد فساروا به إلى دمشق فوصل الأمر بإقامته بها ثم لم يلبث أن قبض عليه

ولم يستعمل فيه ولا في غيره من عمائره أحداً من المسجونين [٧٥]. وكذلك عندما أنشأ السلطان المؤيد شيخ (٨١٥ – ٨٢٤ هـ / ١٤١٢ – ١٤٢١ م) الجامع المؤيدي الذي يقع بجوار باب زويلة سنة ٨١٩ هـ / ١٤١٦ م لم يسخر فيه أحداً من العمال ولم يكلف أحداً فوق طاقته. ويعلق المقريزي على ذلك بقوله: " واستقرّ فيه بضع وثلاثون بنّاء، ومائة فاعل، ووفيت لهم ولمباشريهم أجورهم من غير أن يكلف أحد في العمل فوق طاقته، ولا سخّر فيه أحد بالقهر " [٧٦]، ولما تم بناؤه سنة ٨٢٠ هـ / ١٤١٧ م خلع على المهندسين والصناع العاملين بالجامع نحو خمسمائة خلعة [٧٧]. وعندما بنى القاضي زين الدين عبد الباسط[٧٨] الجامع الباسطي سنة ٨٢٢ هـ / ١٤١٩ م " لم يسخر أحدا في عمله بل وفيّ لهم أجورهم " [٧٩]. وكذلك عند عمارة دار أم السلطان [٨٠] التي عمرها الملك الأشرف سيف الدين برسباي (٨٢٥ – ٨٤١ هـ / ١٤٢١ – ١٤٣٧ م) سنة ٨٢٥ هـ / ١٤٢١ م " لم يسخر في عمارتها أحداً من الناس كما أحدثه ولاة السوء في عمائرهم، بل كان العمال من

وسجن بالإسكندرية، فلما تولى الملك الصالح صلاح الدين صالح (٧٥٢ – ٧٥٥ هـ / ١٣٥١ – ١٣٥٤ م) أفرج عنه وزادت عظمته وكثر دخله حتى قيل أنه كان يدخل له من إقطاعاته وأملاكه ومستأجراته في كل يوم مائتا ألف ولم يسمع بمثل ذلك في الدولة التركية، مات ٧٥٨ / ١٣٥٦ م ؛ (ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج ٢، ص ٣٥٠ – ٣٥٢).

[٧٤] المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٤، ص ١١٨.

(٧٥) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة ، ج ٢، تحقيق عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ص ٧٦.

(٧٦) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٤، ص ١٤٢.

(٧٧) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٢، ص ٣٤ – ٣٥.

(٧٨) هو عبد الباسط بن خليل بن إبراهيم الدمشقي، القاضي زين الدين، ناظر الجيوش بالديار المصرية، ولد سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م، توفي بالقاهرة سنة ٨٥٤ هـ / ١٤٥٠ م ؛ (السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ج ٤، ص ٢٤ – ٢٥).

(٧٩) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٤، ص ١٤٦.

(٨٠) هي قيسارية أنشأتها خوند بركة أم السلطان شعبان بن حسيت لتباع بها الجلود، ويعلوها ربع جليل لسكن العامة ويشتمل على عدة طوابق ووقفت ذلك على مدرستها القائمة إلى الآن بخط التبانة بالدرب الأحمر، فلم تزل في وقفها إلى أن أغتصبها الوزير الأمير جمال الدين يوسف الأستادار فيما أخذ من الأوقاف، ثم أخذها السلطان الملك الأشرف أبو العزيز برسباي فعمرها، (المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٣، ص ١٤٤– ١٤٥ ؛ أحمد السيد الصاوي: كشف المستور من قبائح ولاة الأمور، ص ٥٤ – ٥٥، ٥٩).

البنايين والفعلة ونحوهم يوفون أجورهم من غير عنف ولا عسف " [٨١]. وكان بعض السلاطين يُنعم على العمال بعد انتهائهم من العمل المكلفين به بالخلع والأموال مثلما خلع السلطان قانصوه الغوري (٩٠٦ – ٩٢٢ هـ / ١٥٠٠ – ١٥١٦) على العاملين في جامعه من مهندسين وبنائين ونجارين وغيرهم من أرباب الصنائع وأعطى الفعلة كل واحد ألف درهم بعد انتهائهم من بنائه سنة ٩٠٩ هـ / ١٥٠٣ م) [٨٢].

يتضح من ذلك أنه رغم وجود نماذج قاتمة اتسمت بالعسف والظلم والجور في معاملتها للعمال وتسخيرهم وتحميلهم فوق طاقتهم فإن هنالك نماذج مضيئة اتسمت بالعدل وتقوى الله في عمارتها وإنشاءاتها. ولكن هذا لا يمنع وجود بعض القصور والإهمال والتعدي على العمال وعدم إعطائهم حقوقهم في بعض الأحيان. وذلك راجع إلى الأزمات الاقتصادية في بعض الأحيان وتدني الوازع الديني عند بعض الحكام في بعض الفترات، وإلى ظلم الحكام للعمال وإنكارهم لحقوقهم الإنسانية والمادية [٨٣]. والجدير بالذكر أنه قد أسهم أهل الذمة في أعمال التسخير السابق ذكرها بجانب المسلمين حيث كان يتم تسخيرهم سواءً بسواء[٨٤]، مما يعني أنهما طرفان متساويان في طبقة اجتماعية واحدة ويعاملان معاملة واحدة في أعمال السخرة [٨٥].

وهكذا فقد تقلبت أحوال العاملين في السخرة آنذاك ما بين تسخيرهم بدون أجر، وتسخيرهم مقابل قوتهم اليومي وقد يكون نصف الأجر عينياً ونصفه الآخر نقدياً، ولم يكن يتمتع هؤلاء العمال بأي حقوق إنسانية ولا رعاية صحية بل كان يتم معاملتهم بمنتهى القسوة والعسف.

ب – السخرة الدائمة:

ونقصد بها ممارسة السخرة وفرضها بشكل دائم لا يتستر بمصلحة عامة أو بظروف طارئة ويبدو فيها واضحاً استغلال النفوذ والسلطة. وتلك السخرة كان يعيشها الفلاح بوجه خاص حيث كان يتم استعباده. وقد اقتربت حالة الفلاح في العصر المملوكي

---

(٨١) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٣، ص ١٤٥.

(٨٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٥٨ – ٥٩.

(٨٣) طارق محمد شريتح الكرد: حقوق الإنسان في دولة المماليك، ص ٦٣.

(٨٤) قاسم عبده قاسم: أهل الذمة في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية دولة المماليك، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، الهرم، ٢٠٠٣ م، ص ١٣٩.

(٨٥) أحمد ماجد عبد الله الجبوري: أحوال العامة في مصر في عصر المماليك البرجية، ص ١٥٩.

إلى وضعية متدنية غير إنسانية كان فيها أقرب إلى العبد منه إلى الحر، فلم يكن باستطاعته مفارقة الأرض وهو ما يعبر عنه بالفلاح القراري أي المستقر في الأرض، فيصير عبداً لصاحب الإقطاع لا يباع ولا يعتق بل يبقى عبداً هو وأولاده كذلك [٨٦]، ولا يستطيع مغادرة قريته من غير إذن صاحب الإقطاع او نائبه [٨٧]، يعاني من الإهمال والاحتقار [٨٨]. فلم يكن أمامه سوى العمل والسخرة ودفع الأموال وهو صاغر [٨٩]بل إنه إذا حدث وهرب فلاح فراراً من الظلم والقسوة أعيد قسراً [٩٠] فكان إجبار الفلاحين على الفلاحة من أشكال السخرة الدائمة يقول السبكي في ذلك: " ومن قبائح ديوان الجيش إلزامهم الفلاحين في الإقطاعات بالفلاحة، والفلّاح حرّ لا يد لآدميّ عليه وهو أمير نفسه"[٩١]. وهكذا عاش الفلاح في العصر المملوكي مربوطاً إلى الأرض التي يفلحها يفني حياته في خدمتها ولا يناله من خيراتها إلا القليل [٩٢]. كما كان يتم تسخيره من وقت لآخر للقيام بحفر الترع وإقامة الجسور [٩٣]. ولم يقف الأمر عند هذا الحد وفقط بل كان الفلاح يجبر ببعض الالتزامات الأخرى من هداية وضيافة [٩٤] وغير ذلك وهو ما سبق الحديث عنه في تعريف السخرة. الأمر الذي أدى إلى تدهور الحالة المعيشية والاجتماعية للفلاح الذي كان فاقداً للحرية وعليه العمل قسراً في حقول المقطعين لسد رمقه، ولم يكن له سوى السخرة

---

(٨٦) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ١، ص ١٦١.

(٨٧) السيد الباز العريني: المماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ص ٢٠٤ ؛ A. N. Poliak. M. A: Feudalism in Egypt , Syria , Palestine , and the Lebanon , printed and published of the Royal Asiatic Society , London , 1939 , p 64.

(٨٨) سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص ٣٢٥.

(٨٩) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٢ م، ص ٥٨.

(٩٠) إبراهيم على طرخان: النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، ص ٢٥٢.

(٩١) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص ٣٣ ؛ Op Cit , p 64.[٩١]

(٩٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص ٥٧.

(٩٣) سعيد أمين محمد ناصف: المدينة الإسلامية دراسة في نشأة التحضر القاهرة نموذجاً، رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الآداب، قسم الاجتماع، جامعة عين شمس ، ١٩٨٦ م، ص ١١١.

(٩٤) أحمد عبد الرازق عبد العزيز محمد: الفقراء في القاهرة في القرنين السادس والسابع الهجريين، ص ٣٢ ؛ ibid , p. 67.

ودفع الضرائب [٩٥]. وقد وصف ابن خلدون [٩٦] مهنة الفلاحة بأنها مهنة المستضعفين ويختص أهلها بالمذلة، ويوضح لنا أبو شادوف مدى المعاناة التي يلاقيها الفلاح بقوله: "هم الفلاحة حيرني وكل ساعة في نقصان ما انفك من هم الوجبة لما يجي مال السلطان" [٩٧].

(٩٥) أحمد ماجد عبد الله الجبوري: أحوال العامة في مصر في عصر المماليك البرجية، ص ٢١ ؛ على عبد الله صالح السبعاوي، الأوبئة والكوارث الطبيعية وأثرها على مصر خلال العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة آل البيت، ٢٠١٥ م، ص ٢٨.

(٩٦) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مج ١، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م، ص ٤٩٣ – ٤٩٤.

(٩٧) الشربيني: هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف، المطبعة الأميرية، بولاق، ١٨٩٠ م، ص ١٤١.

المحور الرابع: الموقف العام من السخرة:

مثلما تنوعت صور السخرة وأشكالها فقد تنوعت مواقف الذين وقعت على كاهلهم وطأة السخرة من الفلاحين والعمال والحرفيين وغيرهم من عامة الشعب من مسألة تسخيرهم واستغلالهم وإجبارهم على هذا العمل القسري ومدى خضوعهم وإذعانهم أو رفضهم. وقد اتخذ الموقف العام من السخرة صوراً مختلفة تراوحت بين الإذعان والخضوع إلى الهجرة وترك القرى والأراضي الزراعية هرباً وفراراً من وطأة السخرة التي عانى منها عامة الشعب وكانت لها آثار وخيمة على حياتهم ومعايشهم لذلك كان العامة في كثير من الأحيان يرفضون العمل في السخرة ويعارضون هذا الأمر وقد تمثل موقفهم لأعمال تسخيرهم في الآتي:

أ– الإذعان والخضوع:

توضح تلك الحالات مدى طغيان السطوة والنفوذ والقوة والاستغلال من جانب السلطة للبسطاء على اختلافهم وإجبارهم على العمل القسري في منشآتهم المعمارية سواء أكانت تلك المنشآت منشآت عامة أو منشآت خاصة تخدم مصالحهم الذاتية، وقد أصبحت تلك التجاوزات مع الوقت عادة وعُرفاً، مكتسبة لوناً من الشرعية الزائفة، ولم يكن أمام هؤلاء البسطاء أمام تلك التجاوزات سوى التسليم بالخضوع والاذعان وتنفيذ الأوامر.

ففي الأمثلة التي سبق ذكرها لم يكن أمام المسخرين للعمل سوى الإذعان والخضوع لأنه ليس أمامهم خيار آخر. وللتخفيف من وطأة أعمال السخرة لجأ المسخرون للترويح عن أنفسهم مصطحبين معهم بعض أدوات الغناء مثل الطبول والمزامير [٩٨]، فكانوا يشجعون أنفسهم على العمل عن طريق الغناء فيما عرف بأغاني العمل [٩٩].

ب – الرفض بالشكوى والاستغاثة:

كما يأتي رفض العاملين السخرة بالشكوى فهم مغلوبون على أمرهم ليس أمامهم إلا الاستغاثة كما حدث في عام ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧ م عند تسخير الناس للعمل في عمائر السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩ – ٧٤١ هـ / ١٣٠٩ – ١٣٤٠ م) ولكن لم يتجرأ أحد من الأمراء أن يكلم السلطان بشأنهم [١٠٠]، وإن لم تلقَ هذه الاستغاثة استجابة هذه المرة فربما قد تلقى استجابة في المرة القادمة وهذا ما حدث في نفس العام عندما

---

(٩٨) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٤، ص ٢٧.

(٩٩) أحمد ماجد عبد الله الجبوري: أحوال العامة في مصر في عصر المماليك البرجية، ص ١٦٢.

(١٠٠) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٣، ص ٢٤٢.

استغاث الناس بالأمير ألطنبغا الماردينى [١٠١] ليخلصهم من العمل في حوش السلطان الناصر وما لاقوه من ضرب وذل ومهانة وكان لتوسطه استجابة سريعة من السلطان الذي أمر على الفور أن يعفى الناس من السخرة في هذا الحوش، وأفرج عن من تم القبض عليهم منهم [١٠٢].

ج – الهروب والهجرة:

اجتمعت عوامل عدة أدت لهجرة الكثير من الفلاحين لأراضيهم منها إلزام الفلاحين بتقديم الهدايا والقيام بواجب الضيافة الإجباري للأمراء المقطعين وأتباعهم من غنم ودجاج وغير ذلك بالإضافة لرسوم الجراريف للإنفاق على إصلاح الجسور، والقنوات، ورسم الخفارة وغيرها وما يدفع للتقاوي السلطانية، وأخذ عشر ما تبقى للفلاح من الغلال، بالإضافة إلى الجسور البلدية. وتوزع نفقات إقامتها على الأفراد المنتفعين بها من الفلاحين فيلزم صاحب كل بيت أن يصلحها، بالإضافة لضريبة السدود والحواجز المائية التي تفرض لإنعاش مشاريع الري حتى أصبحت الديون تتراكم على الفلاح من كل جهة [١٠٣]. وقد دفعت المظالم التي تعرض لها الفلاح إلى الهجرة من القرى إلى المدن وكان لهذه الهجرة أثر كبير على الزراعة حيث أدى إلى نقص الأيدي العاملة بالزراعة الأمر الذي أدى بدوره إلى تدهور الزراعة مما دفع سلاطين المماليك إلى إجبار أهالي الريف على العودة إلى قراهم [١٠٤].

الخاتمة:

تطرق البحث إلى السخرة المملوكية في العمائر السلطانية ويمكن عرض أهم نتائج البحث على النحو التالي:

---

(١٠١) ألطنبغا الماردينى الساقي تقدم عند السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي اشتراه صغيراً فاختص به ورقاه وزوجه ابنته، وصارت منزلته عند السلطان المنصور أبي بكر أعظم مما كانت عند أبيه، وقد كان جميل الصورة كريماً توفي سنة ٧٤٤ هـ / ١٣٤٣ م ؛ (المقريزي: المقفى الكبير، ج ٢، ص ٢٨٤ – ٢٨٥ ؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج ١، ص ٤٨٧).

(١٠٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٣، ص ٢٣٣.

(١٠٣) أحمد عبد الرازق عبد العزيز محمد: الفقراء في القاهرة في القرنين السادس والسابع الهجريين، ص ٢٤ – ٢٥.

(١٠٤) طعمه ملح نومي العبيدي: الحياة الاقتصادية في مصر في فترة حكم أسرة السلطان قلاوون المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة آل البيت، ٢٠١٦ م، ص ٤٥.

١- تناولت الدراسة صورة من صور العلاقة الجائرة بين أصحاب النفوذ والسلطة وبين الواقعين تحت طائلة نفوذهم من عامة الشعب. وقد رصدت الدراسة جوانب اختلال في تلك العلاقة تمثلت في فرض بعض أصحاب النفوذ والسلطة على اختلافهم مظالم ومغارم استغلالاً لوضعيتهم ومكانتهم وكانت السخرة أحد وجوه تلك المظالم الهامة .

٢- اتسع مفهوم السخرة ليشمل العمل بأجر زهيد لا يتمشى مع الجهد المبذول وعائده.

٣- شهدت قطاعات واسعة من عامة الشعب حالات مختلفة من السخرة سواء أكانت سخرة دائمة أو مؤقتة. وكان الفلاحون أبرز الواقعين تحت وطأة السخرة وعدد من الأسرى والمساجين بالإضافة إلى العوام الذين كان عليهم وحدهم العمل القسري في العمائر السلطانية والمنشآت المعمارية. وكثيراً ما كان يتعرض هؤلاء للموت ولإصابات العمل دون مراعاة لحقوقهم وآدميتهم، فكان يتم تسخيرهم وتكلفيهم من الأعمال فوق طاقتهم مع عدم مراعاة تخصيص أوقات لراحتهم أو حالتهم الصحية.

٤- تقلبت أحوال العاملين في السخرة ما بين العمل بدون أجر أو العمل بأجر رمزي مع الحصول على قوت يومهم الذي غالباً ما كان يتمثل في رغيف الخبز.

٥- كان الإذعان والخضوع هو الموقف الأبرز من مواقف العامة تجاه تسخيرهم.

٦- تسخير السلاطين والأمراء المماليك للعامة في منشآتهم المعمارية لا ينفي وجود صور مضيئة لغيرهم من السلاطين والأمراء الذين أنفوا استخدام العمال قسراً وبخسهم حقهم من الرواتب والأجور بل وكان البعض منهم يوزع الأموال على العاملين في منشأته بعد انتهائهم منها مكافأة لهم.

٧- كان للسخرة أثرها على الحياة الاقتصادية وعلى الزراعة بشكل خاص حيث أدت هجرة الفلاحين لأراضيهم فراراً من السخرة إلى خراب القرى وتدهور الزراعة مما جعل الدولة تجبر الفلاحين على العودة لقراهم مرة أخرى .

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

- **القرآن الكريم.**
- **ابن إياس: (محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م)**

– **بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ٢، ٣، ٤، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤ م.**

- **البغوي: (أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، ت ٥١٠ هـ / ١١١٦ م)**

– **تفسير البغوي معالم التنزيل، ج ٧، تحقيق محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية و سليمان محسن الحرش، دار طيبة، الرياض.**

- **ابن تغري بردي: (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، ت ٨٧٤ / ١٤٧٠م)**

– **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٥، ٩، ١٤، دار الكتب، مصر.**

- **ابن جبير: (أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني البلنسي الشاطبي، ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م)**

– **رحلة ابن جبير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى.**

- **ابن حجر العسقلاني: (أبو الفضل أحمد بن على بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م)**

– **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج ١، ٢، ٤ ، ٦، تحقيق محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، الطبعة الثانية، ١٩٧٢ م.**

- **ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد بن جابر بن إبراهيم، ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)**

– **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مج ١، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.**

- **ابن خلكان: (أبو العباس شمس الدين بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)**

– **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج٤، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧١ م.**

- **الذهبي: (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)**

- معجم الشيوخ الكبير، ج ١، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، مكتب الصديق، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.
- الرازي: (محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، ت ٦٦٦هـ / ١٢٦٧م)
- مختار الصحاح، تحقيق يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٩٩ م.
- الزبيدي: (محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي، ت ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م)
- تاج العروس من جواهر القاموس، ج ١١، تحقيق عبد الكريم العزباوي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٩٧٢ م.
- الزمخشري: (أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ت ٥٣٨ هـ/ ١١٤٣ م)
- أساس البلاغة، ج ١، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨ م .
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج ٤، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦ م.
- السبكي: (تاج الدين عبد الوهاب السبكي الشافعي، ت ٧٧١ – ١٣٦٩ م)
- معيد النعم ومبيد النقم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦ م.
- السخاوي: (شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي، ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م)
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج ٤، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.
- ابن شاهين الظاهري: (زين الدين عبد الباسط بن أبي الصفاء غرس الدين خليل ابن شاهين الظاهري، ت ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م)
- نيل الأمل في ذيل الدول، ج ٣، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢ م.
- الشربيني: (يوسف بن محمد بن محمد بن عبد الجواد بن خضر الشربيني، ت بعد ١٠٩٨ هـ / ١٦٨٦ م)
- هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف، المطبعة الأميرية، بولاق، ١٨٩٠ م.
- الطبري: (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م):

- تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آى القرآن، ج ٢١، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف، مصر.
- ابن قاضي شهبة: (أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن محمد تقي الدين بن قاضي شهبة الدمشقي، ت ٨٥١هـ/ ١٤٤٧م)
- تاريخ ابن قاضي شهبة، ج ٢، تحقيق عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق.
- القرطبي: (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ت ٦٧١هـ/ ١٢٧٢م)
- الجامع لأحكام القرآن، ج ١٦، دار الفكر، القاهرة.
- القلقشندي: (أبو العباس أحمد بن على القلقشندي، ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨م)
- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ٤، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن مأمون: (جمال الدين أبو على موسى بن مأمون البطائحي، ت ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م)
- أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة.
- المقريزي: (تقي الدين المقريزي، ت ٨٥٤هـ / ١٤٥٠م)
- السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ٣، ٦، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧ م.
- المقفى الكبير، ج ٢، ٣، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩١ م.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٣، ج ٤، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧ م.
- ابن منظور: (أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الإفريقي، ت ٧١١هـ / ١٣١١م)
- لسان العرب، ج ٧، ١١، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٣ م.
- ياقوت الحموي: (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)
- معجم البلدان، ج ٣، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥ م.

المراجع العربية:

- **إبراهيم على طرخان: (دكتور)**

– **النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨ م.**

- **أحمد السيد الصاوي: (دكتور)**

– **كشف المستور من قبائح ولاة الأمور، مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر، الجيزة، الطبعة الأولى، ١٩٩٤ م.**

- **أحمد أمين:**

– **قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، ٢٠١٣ م.**

- **أحمد تيمور:**

– **معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية، ج ٤، تحقيق حسين نصار، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١ م.**

- **حسان حلاق و عباس صباغ: (دكتور)**

– **المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى،١٩٩٩م.**

- **زبيدة محمد عطا: (دكتور)**

– **الحياة الاقتصادية في مصر البيزنطية، الأمين للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٤ م.**

- **سعيد عبد الفتاح عاشور: (دكتور)**

– **العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٦ م.**

– **المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٢ م.**

- **السيد الباز العريني: (دكتور)**

– **المماليك، دار النهضة العربية، بيروت.**

- **عطية القوصي: (دكتور)**

– **تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربي حتى الفتح العثماني، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٩٧ م.**

- موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية، عصر سلاطين المماليك، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٧ م.

• قاسم عبده قاسم: (دكتور)

- أهل الذمة في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية دولة المماليك، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، الهرم، ٢٠٠٣ م.
- النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٨ م.

• محمد أحمد دهمان:

- معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٠ م.

• محمود رزق سليم: (دكتور)

- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، ج ١، المطبعة النموذجية، الحلمية الجديدة، الطبعة الثانية، ١٩٦٢ م.

المراجع الأجنبية المعربة:

• أولج فولكف:

- القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة، ترجمة أحمد صليحة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦ م.

• إيرا لابدوس:

- مدن إسلامية في عهد المماليك، ترجمة على ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٧ م.

• هنرى عيروط:

- الفلاحون، ترجمة محمد غلاب، الطبعة الثانية، (ب. ن).

الدوريات العربية:

• عماد جغيم عويد العبودي: (دكتور)

- شعر الجوع في الأدب العربي (العصر المملوكي أنموذجاً) ، جامعة ميسان، كلية التربية، مجلة أبحاث البصرة (العلوم الإنسانية، المجلد ٣٨، العدد ١، ٢٠١٣ م.

الرسائل العلمية:

- **أحمد عبد الرازق عبد العزيز محمد:**

– **الفقراء في القاهرة في القرنين السادس والسابع الهجريين، رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة الزقازيق، ٢٠١١ م.**

- **أحمد ماجد عبد الله الجبوري:**

– **أحوال العامة في مصر في عصر المماليك البرجية، رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة آل البيت، ٢٠١٥ م.**

- **سحر بنت على محمد دعدع:**

– **ولاة القاهرة الكبرى خلال العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ٢٠٠٦ م.**

- **سعيد أمين محمد ناصف:**

– **المدينة الإسلامية دراسة في نشأة التحضر القاهرة نموذجاً، رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الآداب، قسم الاجتماع، جامعة عين شمس، ١٩٨٦ م.**

- **طارق محمد شريتح الكرد:**

– **حقوق الإنسان في دولة المماليك، رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الآداب، قسم التاريخ والآثار، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠١٥.**

- **طعمه ملح نومي العبيدي:**

– **الحياة الاقتصادية في مصر في فترة حكم أسرة السلطان قلاوون المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة آل البيت، ٢٠١٦ م.**

- **على عبد الله صالح السبعاوي :**

– **الأوبئة والكوارث الطبيعية وأثرها على مصر خلال العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة آل البيت، ٢٠١٥ م.**

- **هالة نواف يوسف الرفاعي:**

– **السجون في مصر في العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الدراسات العليا، قسم التاريخ، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٨ م.**

المراجع الأجنبية:

A. N. Poliak. M. A:

- Feudalism in Egypt , Syria , Palestine , and the Lebanon , printed and published of the Royal Asiatic Society , London , 1939. .

J.W.Red House:

- Alexicon English And Turkish , Printed for the Mission by A. H. Boyajian,1884.

مواقع الإنترنت:

جي راشيه: السخرة في مصر الفرعونية، ترجمة فاطمة عبد الله محمود، مقال منشور على موقع http://crown-egypt.com /، تاريخ آخر زيارة ١١ / ٤ / ٢٠١٧ م.